العنوان السادس عشر

المدخلات

يقصد بهذا المصطلح، المترجم عن المصطلح الغربي مجموعة الإمكانات، والقدرات المتاحة، والمتوفرة لدى المؤسسة التعليمية، وتشتمل على الطلاب، من حيث مستوياتهم، ونوعياتهم، وقدراتهم، وخلفياتهم الثقافية، والاجتماعية.

كذلك البرامج الدراسية، بمحتوياتها، والتقنيات المساعدة لها ونظم التقويم، والاختبار. يشكل أعضاءُ هيئة التدريس، إحدى أبرز هذه الإمكانات، بأعدادهم، ومؤهلاتهم العلمية والعملية، وجنسياتهم، وبحوثهم، وأنشطتهم العامة المثمرة.

تُعد المنشآت بأعدادها، ومساحاتها، وتنوعها من قاعات ومكاتب ومعامل ومساحات من هذه الإمكانات، وكذلك الموارد المالية، بمصادرها، وأشكالها، واستقرارها، وكذا النظام الإداري، بكل أبعاده، وأمور أخرى.

ليس من عجب في ضوء ما تقدم، أن كانت هذه المدخلات كما يسمونها هي الأساس، الذي تقوم عليه عملية الاعتماد، ومؤشرات الجودة للمؤسسات التعليمية.

استمر هذا حيناً من الدهر، إلى أن اتجهت الأنظار صوب المخرجات، وهي نتاج المدخلات، وما يتمخض عنها، كما سيأتي في عنوانها.

بقي هذا الاتجاه سائداً، إلى جانب الاتجاه الأول، الذي لم يُغفل، حتى استقر الوضع لدى لجان الاعتماد، على اعتماد مجموعة من المعايير، تأخذ بعين الاعتبار ثلاثيةً، تتكون من المدخلات، والعمليات، والمخرجات.

نعني بالعمليات كما لا يخفى، مجموعة الوظائف الأكاديمية، والإدارية، والمالية، وما يصاحبها من أعمال، تتجه كلها نحو المدخلات، أما المخرجات، فلها عنوان قادم.

تُعد المدخلات بعامة، رأس الأمر، ونقطة الارتكاز، وهي الأساس في كل إنجاز، إذ ليس ثمة ما يُعد إنجازاً، أو إنتاجاً، من غير وجود هذه الإمكانات، وتضافرها، بَلْه التجويد، والتحسين، وتلكم مسألة بادية الوضوح.

يحسن بسط المسألة قليلاً، حتى لا يبدو فيها شيء من التعارض، فإنه حين يُقال إن المدخلات لم تعد هي المقياس؛ لأن المؤسسة لا تقاس بما تملك، وإنما تقاس بمدى قدرتها على الاستثمار، فإن هذا التوجه السليم، لا يُلغي أهمية المدخلات.

إن العمليات بمجموعها لا تنتج مخرجات متميزة ما لم تكن المدخلات في ذاتها جيدة، ومناسبة، وصالحة للاستثمار أصلاً، لأنك مهما بذلت من الجهد، والمهارة، لن تَجني من الشوك العنب.

أسوق في هذا المقام، قصة حقيقية طريفةً، تدخل ضمن مُطيبات البحث، ونكهاته، لأحد المدخلات، التي لا يمكن تحسينها واستثمارها، وإن حشدت لها العمليات جميعها.

فقد حدثني من أثق به، قال: كانت قرية – في دولة ما – تخلو من مسجد، وكان أهلها يتوجهون إلى مسجد القرية المجاورة، كلما دعت الحاجة، عزَّ على أهلها هذا المسلك، فقرروا بناء مسجد خاص بهم.

بدأت اللجنة المكلفة بالعمل، وأحضرت المواد اللازمة للبناء، بعد تعيين قطعة الأرض المناسبة، صاحب هذه المواد، عدد من العمال بقصد إنزالها على الأرض، وتم هذا العمل.

كان من بين هؤلاء العمال، رجل كبير في السن، من صعيد مصر، لم يعد يقوى على هذا العمل الشاق، فعرض على اللجنة أن يبقى عند مواد البناء من حديد واسمنت وغيرها يحرسها، ويقدم خدماته، في أثناء البناء، فاستحسنت اللجنة الاقتراح، وعُيِّن هذا العامل حارساً للمشروع.

تم البناء، واتجهت اللجنة إلى مكتب الأوقاف في المنطقة تطلب إماماً، ومؤذناً لهذا المسجد، لم يحصلوا إلاّ على وعود، وكلام معسول لمعوقات كثيرة، صار الحارس يؤذن، وإن لم يوجد أحد يتقدم للإمامة، فإنه يتقدم، ويؤُم الناس.

لم يقف الأمر عند هذا، فقد اتفق أهل القرية، مع أستاذ التربية الدينية، أن يُصلي فيهم الجمعة، وكان هذا الأستاذ من المدينة المجاورة.

كان يحدث أن يُغادر الأستاذ القرية نهاية الأسبوع، لزيارة أهله، وكان ينوب عنه في بعض الأحيان ذلك الرجل، الذي جاء حمّالاً، وصار حارساً، ثم مؤذناً، ثم إماماً، ثم هاهو خطيب جمعة.

لما أسقط في أيدي أهل القرية، ورأوا أن هذا الرجل صار قدَرَهم، اقترحوا على مكتب الأوقاف، أن يُلحقه في دورات تأهيل، وتدريب، فوعدوا خيراً، على أمل أن يتحول هذا المدخل إلى مُخرج جيد، من خلال العمليات، ولكن هيهات، هيهات.

إن النعمة العُظمى التي تتمثل في حيازة مؤسسةٍ ما، المدخلات المتميزة، قد تتحول إلى نقمة عليها إذا فشلت في توظيفها، التوظيف الأمثل، وعجزت عن استثمارها، بطرق سليمة.

لا يغني عن مؤسسةٍ ما، إذا ما أخفقت في تقديم نتاج متميز، أنها تمتلك إمكانات كبيرة ومتميزة، بل على العكس من هذا، فإن الإمكانات الكبيرة، والمتميزة، غير المستثمرة، استثماراً جيداً، تزيد من حجم اللوم، والعتاب الموجه للمؤسسة.

إن أصابع الاتهام بالتقصير، تتجه دون حرج، أو عناء إلى القائمين على هذه المدخلات، حين يعجزون عن تحويلها إلى مخرجات إيجابية، متميزة، ينتظرها المجتمع.

قد ترى بعض الجهات، التي أسهمت في توفير هذه الإمكانات، أنها صارت عبئاً عليها، بعد أن كانت تأمل أن تفيد من نتاجها.

قد تحوز مؤسسةٌ ما، معامل ذات تقنية عالية، لكنها لا تحقق الأهداف التي من أجلها جيء بها، وقد تحرص هذه المؤسسة كذلك على قبول الطلاب المتميزين، لكنها تعجز عن رفع مستوى القيمة الإضافية التي تُرجى فيهم.

يحدث أيضاً أن تبتعث المؤسسة عدداً من أبنائها المتميزين للحصول على الشهادات العليا وتستقطب المؤسسة عدداً من أعضاء هيئة التدريس، المشهود لهم بالتميز على مستوى العالم، وتدفع لهم رواتب عالية، لكنَّ عطاءهم قد لا يزيد عن عطاء مدرس مقرر، بغض النظر عن الأسباب.

تكون المؤسسة، والحالة هذه، قد أحسنت في القبول، والاستقطاب، لكنها لم تُحسن في الاستثمار، وقل إن شئت في الاستحلاب، وقد قيل ما فائدة السراب، إذا كان يلمع ولا ينفع؟ ولمَ النظر إلى السحاب، إذا كان يبرق، ولا يُغدق؟

يتعذر على المؤسسة في ضوء هذا المسلك أن تفخر بهذه الإمكانات، وقد أبدع المتنبي ولطالما أبدع، حين قال:

فما تنفع الخيل الكرام، ولا القنا إذا لم يكن فوق الكرام كرام

لم تغب هذه الحقائق عن جهات الاعتماد، وإنما كانت حاضرة في معاييرها، فهي تنظر في مدى التوظيف الأمثل، لهذه المدخلات، من قبل المؤسسات.

حق لمن لا يلتفت إلى المدخلات، من حيث هي مجرد إمكانات ما صنع، فحجته واضحة؛ لأن الضوء يُسلط على ما يتمخض عنها، من إنجازات، تعود بالنفع على المجتمع.

تنبه إلى هذا أحد الحكماء حين قال: يجب أن لا نحكم على الناس بمؤهلاتهم، ولكن باستخدامهم لهذه المؤهلات، وأحسب أنها عبارة جميلة، وأجمل منها، قول المتنبي:

إن السلاح جميع الناس تحمله وليس كل ذوات المخلب السبع

يُحتِّم هذا الذي تقدم، على أصحاب القرار أن يُحسنوا التصرف بما بين أيديهم من مدخلات، من حيث التوجيه، والتقويم، والترتيب، والتعامل معها في ضوء الأهداف، والاحتياجات، والأولويات.

يُعد الطالب أبرز هذه المدخلات، فيما أحسب، فهل جرى النظر إليه يوم قبوله، باعتباره مُعلم الغد، وطبيب المستقبل؟ والوقوف على مدى صلاحيته لهذه المهمة، قبل أن يحجز مقعداً، ويُنفق عليه، وهل هو دارس مرشح، قابل للنجاح والفشل؟ أو أنه لا محالة، سوف يتخرج طبيباً، أو معلماً، أو مهندساً؟ والمجتمع ملزم به، على ما هو عليه.

إن تعظيم دور المدخلات على وجاهته، لا ينبغي أن يبعث على القلق لدى القائمين على المؤسسات، التي ربما تكون إمكاناتها محدودة، في بعض الجوانب، فكما أن سوء التصرف أثّر سلباً في المدخلات الكبيرة، والمتميزة، فكذلك حُسن التصرف، سوف يؤثر إيجابياً، في المدخلات المحدودة.

وفاءً بالوعد، وبقاءً على العهد في الحديث عن الجودة، ومعالمها بنكهات، ومطيبات مصاحبة، فإني أسوق قصةً، طريفةً، يُعذر من يراها غير مناسبة لهذا الكتاب، لكنها على أية حال، ذات صلة وثيقة بما نحن بصدده، أعرضها مع تصرف يسير بغية التوضيح والتيسير والتقدير للمقام.

حدثني أخو ثقةٍ، صاحبُ دعابةٍ، قال: دُعيت أنا وصديق، على عشاء، وكانت تجمعنا بصاحب الدعوة علاقة مودة، وطول صحبة على اختلاف في الدار، أسهمت في رفع الكلفة.

قدَّم لنا صاحب البيت، عدة أطباق مختلفة الشكل، والطعم، وفي أثناء الحديث على الطعام، تبين أنها كلها من الباذنجان، وطفق صاحب البيت، يُحدثنا عن هذه الأطباق.

فقال: هذا الطبق، كما ترون باذنجان محشي، كما لا يخفى، وهذا الثاني متبل الباذنجان، والذي يُسمى عند بعضهم، (بابا غنوج)، وهو كما ترون، عبارة عن باذنجان مشوي يوضع عليه الطحينة، والزيت، والليمون، وقد يُستغنى عن الطحينة، فيصبح طبقاً مختلف الشكل، والطعم.

أما الطبق الثالث، فهو عبارة عن شرائح باذنجان، يوضع بينها اللحم المفروم، ويضاف إليها الطماطم، والفلفل الأخضر، وتطبخ في الفرن.

أشار المضيف إلى طبق رابع صغير، وقال: في هذا الطبق ما نُسميه "مقدوساً"، وهو عبارة عن باذنجان، يوضع بداخله الجوز أو ما يُسمى بعين الجمل والثوم، ويوضع بالزيت، والطبق الخامس الذي بجانبه، هو مخلل الباذنجان، يُحشى ببعض الثوم، والفلفل، ويوضع بالماء والملح مدة من الزمن.

وهذا طبق سادس، يتكون من الخبز المحمص، والباذنجان، وبعض كرات اللحم، يضاف إليها اللبن الزبادي، ولا أدري بالضبط ماذا يسمونه؟

وأردف قائلاً وهناك صنف تعذر تقديمه، تصنعه جدتي، وهو مربَّى الباذنجان، وهو حلو بالطبع، لا يختلف كثيراً عن المربيات المعروفة المألوفة، وصنف آخر من الحلويات، وهو عبارة عن باذنجان صغير جداً، يجفف بالسكر، ويُصبح حلويات، لعلي أقدمه لكم، في يوم من الأيام.

كان صاحب البيت يسرد هذه الأصناف، ويوصِّفها وأنا أناقشه، وأسأله عن بعضها بشيء من الدعابة، في أثناء تناولنا لها.

قال الراوي: أما صاحبي، فكان ملتزماً الصمت، لكنه سرعان ما قطع صمته قائلاً: يعني هناك ثمانية أصناف مختلفة، تُصنع من الباذنجان، ثم أردف قائلاً وهو يتنهد أما أنا يا إخوتي، فأقول بكل صراحة، إنني منذ مدة طويلة، لم أدخل الباذنجان إلى بيتي. والسبب لا يخفى عليكم.... قد تبدو في القصة سذاجة ولكنها على أية حال لا تبعد عن حكايات الفيلسوف بيدبا، وحسبي أن الرسالة وصلت.

أما أنا فقد تركت الخلان يستمتعون بألوان الباذنجان وخلوت بنفسي أسائلها، ماذا عساي أن أفعل بالطالب الذي قذفته الثانوية العامة بين يدي.

هل أنا قادر على توظيف ما لدي من إمكانات في ضوء الأهداف والمعايير لأصنع من هذا الطالب وأمثاله مدرساً قادراً على تدريس المواد الدينية في مراحل التعليم، وهل أنا قادر أيضاً على أن أجعل منه واعظاً وخطيب جمعة ناجحاً في ضوء القيمة المضافة.

وهل سيكون صالحاً حين تخرجه للعمل في مجال الأمر بالمعروف بالمعروف، والنهي عن المنكر بلا منكر، من خلال المعايير المتفق عليها، إذا أتيحت له فرصة العمل في سلك القضاء هل سيكون أهلاً لهذا العمل الجليل في ضوء المحتوى المعرفي الذي زُوِّد به.

قد يعرض عليه العمل ملحقاً دينياً في إحدى السفارات فهل أحسن أساتذته في إعداده لتولي هذا المنصب، وهل المقررات التي درسها تؤهله لهذا العمل.

لو تقدم هذا المتخرج للعمل محرراً للصفحة الدينية في إحدى الصحف، هل سيكون ناجحاً في ضوء ما قدم له في أثناء دراسته من معلومات.

إنها القصة نفسها إذن، وإنه المطبخ ذاته، وإنها الأسئلة ذاتها تعرض لكل القائمين على البرامج كلٌّ في مجال تخصصه وفي ضوء مواصفات خريجي هذه الأقسام، ونعوذ بالله من منهج الهروب إلى الأمام.

تبدو فائدة المدخلات جليةً، ويحسن الاستمتاع بها حين تتحول إلى مخرجات متقنة، ونقول بعبارة تناسب المقام، إن المدخلات إذا لم تتحول إلى أطباق ذات أشكال، وألوان، ومذاقات، فإنها ستبقى عبارة عن ركام من الإمكانات ليس لمن يملكها حق التباهي بها مادامت على حالها.

إن الحصول على الجودة التي نشتهي، هو ما يُعظِّم دور العمليات، والتي من أبرزها النشاطات الأكاديمية، والإجراءات الإدارية، والنظم المالية، والتي تعد الجسر الواصل بين المدخلات، والمخرجات، وتُعظِّم دور الرجال القائمين عليها.

obeikandl.com